

فلسفة جمال الدين الافغاني

وعدنا في الجزء السابق ان نبدأ بتلخيص رسالة المرحوم جمال الدين الافغاني . وهذا اوان الشروع في هذا التلخيص . قال

شاع لفظ النيشرية حتى طبق البلاد الهندية في هذه الايام واصبحت هذه الكلمة دائرة في المحافل سيطرة في الجامع وللعمامة والخاصة فيها مذاهب . فالغالب منهم يخبط على بعد من حقيقتها في غفلة عن اصل وضعها

لهذا رايت من الحق ان اشرح مفهومها واكشف المراد منها وارفع الستار عن حال النيشريين من بداية امرهم واعرض للناظرين شيئاً من مفاسدهم

الرأيان

الالهيون — الطبيعيون

اثبت ثقات المؤرخين ان حكماء اليونان انقسموا في القرن الرابع والثالث قبل المسيح الى فئتين . ذهبت « احدها » الى وجود ذات مجردة عن المادة والمدة مخالفة للحسوسات في لوازمها منزهة عن لواحق الجسمانية وعوارضها واثبتت ان سلسلة الموجودات مادية ومجردة تنتهي الى موجود مجرد واحد من جميع الوجوه مبرراً الذات عن التأليف والتركيب ومحال عند العقل تصور التركيب فيه . وجوده عين حقيقته وحقيقته عين وجوده وهو المصدر الاول والموجد الحقيقي والمبدع لجميع الكائنات مجردة كانت او مادية . واشتهرت هذه الطائفة بالثألهين « الخاضعين لله » (١) ومنهم فيثاغورث وسقراط وافلاطون وارسطو ومن اهل مذهبهم كثير . وذهبت « اخرى الطائفتين » الى نفي كل موجود سوى المادة والماديات وان وصف الوجود بمختص بما يدرك بالحواس الخمس لا يتناول شيئاً وراه

(١) بسميهم علماء الافرنج الهيين Deistes والمراد بها ائقائلون بالله اي بوجوده تعالى ولكنهم ينكرون الوحي فترجمتها « الخاضعين لله » ترجمة ضعيفة

وعرفت هذه الطائفة . بالماديين (١) ولما سئلوا عن منشأ الاختلاف في صور المواد وخواصها والتنوع الواقع في آثارها نسبوا الاقدمون منهم الى طبيعتها واسم الطبيعة في اللغة «ناتور» وفي الانكليزية «نيسر» ولهذا اشتهرت هذه الطائفة عند العرب بالطبيعيين . وعند الفرنساويين باسم «ناتوراليسم» أو «ماتير باليسم» الاول من حيث هي طبيعية والثاني من حيث هي مادية

القول بالصدفة

ثم اختلف هؤلاء بعد اعتماد اصلهم هذا في تكوين الكواكب وتصوير الحيوانات وانشاء النباتات فذهب فريق منهم الى ان وجود الكائنات العلوية والسفلية ونشأة المواليد على ما نرى انما هو من الاتفاق واحكام الصدفة وعلى ذلك اتقان بنائها واحكام نظامها لا منشأ له الا الصدفة . كما ادت بهم سخافة الفهم الى تجويز الترجيح بلا مرجح وقد احالته بداهة العقل ورأس القائلين بهذا القول ديمقراطيس ومن رآه ان العالم اجمع «ارضيات وسناويات» مؤلف من اجزاء صغار صلبة متحركة بالطبع ومن حركتها هذه ظهرت اشكال الاجسام وهيئاتها بقضاء العناية المطلقة

القول بالقدم

وذهب فريق آخر الى ان الاجرام السماوية والكرة الارضية كانت على هيئتها هذه من ازل الازل ولا تزال ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات وزعموا ان في كل بزة

(١) لبسط هذا الكلام بايضاح ننقل هنا فقرة من كتابنا «ابن رشد وفلسفته» وهي «كل الفلاسفة والعلماء من حين نشأة الفلسفة والعلم الى اليوم لتخصر آراؤهم عن الخلق والخالق في راينين . الراي الاول «وجود خالق حر مختار في اعماله يهب متى شاء ويمنع متى شاء . وله عنايه الهية تدبر العالم . وهو سبب قوى الطبيعة اي ان هذه القوى موجودة فيه لا فيها . ووجود نفس بشرية جوهرها خالد لا يفنى» والراي الثاني «ان المادة ازلية اي لا بداية لها . ونشأة الكون انما هي من تحوّل دقائق هذه المادة بقوتها الخاصة نحولاً ترتقي به من حالة الى حالة اسمي . وذلك يقتضي وجود طبيعة ثابتة ونواميس ووجوب الوجود وعقل تبني عليه النواميس وفناء الانسان في الكل الذي اخذ منه مع الاعتقاد بوجود خالق ولكن اعتقاداً مبهماً» — هذان هما الحربان اللذان تنازعا ويتنازعا العلم والدين

نباتاً مندمجاً فيها وفي كل نبات بزرّة كامنة ثم في هذه البزرّة الكامنة نبات وفيه بزرّة الى غير النهاية . وعلى هذا زعموا ان في كل جرثومة من جراثيم الحيوانات حيواناً تام التركيب وفي كل حيوان كامن في الجرثومة جرثومة اخرى يذهب كذلك الى غير نهاية وغفل اصحاب هذا الزعم عما يلزمه من وجود مقادير غير متناهية في مقدار متناه وهو من الحالات الأولى

وزعم فريق ثالث ان سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع كما ان الاجرام العلوية وهيئاتها قديمة بالشخص ولكن لا شيء من جزئيات الجراثيم الحيوانية والبزوز النباتية بقديم وانما كل جرثومة وبزرّة هي بمنزلة قالب يتكون فيه ما يشاكله من جرثومة وبزرّة اخرى وفاتهم ملاحظة ان كثيراً من الحيوانات الناقصة الخلقة قد يتولد عنها حيوان تام الخلقة وكذلك الحيوان التام الخلقة قد يتولد عنه ناقصها او زائدها ومال جماعة منهم الى الابهام في البيان فقالوا ان انواع النباتات والحيوانات ثقلت في اطوار وتبدلت عليها صور مختلفة بمرور الزمان وكرور الدهور حتى وصلت الى هيئاتها وصورها المشهورة لنا واول النازعين الى هذا الرأي « ايقور » احد اتباع « ديوجينس الكلبي » ومن مزاعمه ان الانسان في بعض اطوار كان مثل الخنزير مستور البشرة بالشعر الكثيف (١) ثم لم يزل ينتقل من طور الى طور حتى وصل بالتدريج الى ما نراه من الصورة الحسنة والخلق القويم ولم يبق دليلاً ولم يستند الى برهان فيما زعمه من ان مرور الزمان علة لتبدل الصور وترقي الانواع

القول بالتولد

ولما كشفت علوم الجيولوجيا « طبقات الارض » عن بطلان القول بقدم الانواع رجع المتأخرون من الماديين عنه الى القول بالحدوث ثم اختلفوا في بحثين . الاول بحث تكون (٢) الجراثيم النباتية والحيوانية فذهب جماعة الى ان جميع الجراثيم على اختلاف انواعها

(١) وهوراي العلماء اليوم ايضاً

(٢) يريد بهذا مبدأ « التولد » المشهور في كتابات الفيلسوف ابن طفيل وقد سماه كذا « التولد » بدل تسميته « التولد الذاتي » التي اصطلح عليها اليوم كتاب العربية اذ لا حاجة لنسبته الى الذات ولا الى تاكيده لان كلمة التولد توّدي معنى الكلمة العلمية الفرنسية Generation Spontaneeه وقليلاً ما راينا اللغة العربية اخصر من اللغة الفرنسية كما في هذه التسمية

تكونت عند ما اخذ التهاب الارض في التناقص ثم انقطع التكوّن بانقضاء ذلك الطور الارضي وذهبت اخرى الى ان الجراثيم لم تنزل لتكون حتى اليوم خصوصاً في خط الاستواء حيث تشتد الحرارة (١)

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نهائية او حيوانية خصوصاً بعد ما تبين لهم ان الحياة فاعل في بسائط الجراثيم موجب لانتقامها حافظ لكونها وان قوتها الغازية هي التي تجعل غير الحي من الاجزاء حياً بالتغذية فاذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاوزها ثم صارت الى الانحلال

وظن قوم منهم ان تلك الجراثيم كانت مع الارض عند انفصالها عن كرة الشمس وهو ظن عجيب لا ينطبق على اصلهم من ان الارض عند الانفصال كانت جذوة نار ملتهبة وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تمح صورها في تلك النيران المستعرة

القول بالتحول والنشوء

والبحث الثاني من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها الى ذروة كمالها وتحولها من حالة الخداج « النقص » الى ما نراه من الصور المتقنة والهيئات المحكمة والبنى الكاملة . فمنهم قائل بان لكل نوع جرثومة خاصة به ولكل جرثومة طبيعة تميل بها الى حركة تناسبها في الاطوار الحيوية وتجنذب اليها ما يلائمها من الاجزاء الغير الحية ليصير جزءاً لها بالتغذية ثم تتجاول بلباس نوعه . وقد غفلوا عما اثبتته التحليل الكيماوي من عدم التفاوت بين نطفة الانسان ونطفة الثور والحمار مثلاً (٢) وظهور تماثل النطف في العناصر البسيطة . فما منشأ التخالف في طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها . ومنهم ذاهب الى ان جراثيم الانواع كافة خصوصاً الحيوانية متماثلة في الجوهر متساوية في الحقيقة وليس بين الانواع تخالف جوهري ولا انفصال ذاتي ومن هذا ذهب صاحب هذا القول الى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعية الى صورة نوعية اخرى بمقتضى الزمان والمكان وحكم الحاجات والضرورات وقضاء سلطان القواصر الخارجية

- (١) هذا الراي لعلماء العرب ولذلك جعل الفيلسوف ابن طفيل موضع حوادث رواية « حي بن يقظان » في خط الاستواء وجعل « حياً » المذكور يتولد تولد آمن غير اب ولا ام بل بنضج حرارة الشمس وتفاعل العناصر الطبيعية عند اتحادها بصلصال الارض
- (٢) لا نعلم من اين جاء بهذا . وهب انه صمغ فانه يكون دليلاً على وحدة اصل الانسان والحيوان وهو ما يريد الافغاني نقضه من كل وجه

رده على دروين

وراس القائلين بهذا القول «دروين» وقد الف كتاباً في بيان ان الانسان كان قرداً (١) ثم عرض له التنقيح والتهديب في صورته بالتدرج على ثلثي القرون المتطاولة وبثاثير الفواعل الطبيعية الخارجيه حتى ارتقى الى برزخ «اوروان اوتان» ثم ارتقى من تلك الصورة الى اول مراتب الانسان فكان صنف اليميم وسائر الزنوج ومن هناك عرج بعض افراده الى افق اعلى وارفع من افق الزنجيين فكان الانسان القوقاسي وعلى زعم دروين هذا يمكن ان يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون وكر الدهور وان ينقلب الفيل برغوثاً كذلك

فان سئل دروين عن الاشجار القائمة في غابات الهند والنباتات المتولدة فيها من ازمان بعيدة لا يحددها التاريخ الا ظناً واصولها تضرب في بقعة واحدة وفروعها تذهب في هواء واحد وعروقها تسقي بماء واحد فما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيتها واشكال اوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره فاي فاعل خارجي اثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء . اظن لا سبيل الى الجواب سوى العجز عنه

وان قيل له هذه اسماء بحيرة اورال وبحر كسين مع تشاركها في الماء كل والمشرّب وتسايقها في ميدان واحد نرى فيها اختلافاً نوعياً وتبايناً بعيداً في الالوان والاشكال والاعمال فما السبب في هذا التباين والتفاوت فلا اراه يلجأ في الجواب الا الى الحصر (٢)

(١) لم نشر الى جوانب الخطاء في ما تقدم من كلام الافغاني عن فلسفة المتقدمين لان الكلام في ذلك يدعو الى الملل والاطالة فنكتفي بالإشارة الى خطاءه في فلسفة المتأخرين فان قوله ان دروين يذهب الى ان الانسان كان قرداً ثم عرض له التنقيح والتهديب في صورته قول غير صحيح والصواب ان دروين يقول ان القرد والانسان من اصل واحد . وبين القولين فرق عظيم . ويظهر ان الافغاني رحمه الله كان ككثيرين من اهل هذا الزمان لم يطلع على ذات المصادر التي يتكلم عنها في امهات كتبها بل سمع بها سمعاً او قرأ عنها . وليس هناك امر كهذا الامر مدعاة الى الخطل والزلل

(٢) لا نفهم ماذا يريد الافغاني ان يقرره في رغبته في هدم جميع المذاهب القديمة والحديثة . ففي مسألة الخلق مثلاً نرى ان ابن رشد الذي عاش قبله بقرون عديدة هو

« بالتحريك العجز عن الكلام »

كأنني بهذا المسكين وما رماه في مجاهيل الاوهام ومهامه الخرافات الا قرب المشابهة بين القرد والانسان وكان ما اخذ به من الشبه الواهية الهية يشغل بها نفسه عن آلام الحياة وحسرات العماية وانا نورد شيئاً مما تمسك به

فمن ذلك ان الخليل في سيبيريا وبلاد الروسية اطول واغزر شعراً من الخليل المتولدة في البلاد العربية وانما علة ذلك الضرورة وصدما

ونقول ان السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته في بقعة واحدة لوقتين مختلفين حسب كثرة الامطار وقتلتها ووفور المياه ونزورها او هوعلة الخجافة ودقة العود في سكان البلاد الحارة والضحامة والسمن في اهل البلاد الباردة بما يعتري البدن من كثرة التخلل في الحرارة وقلته في البرودة

ومن واهياته ما كان يرويه « دروين » من ان جماعة كانوا يقطعون اذنان كلابهم فلما واطبوا على علمهم هذا قروناً صارت الكلاب تولد بلا اذنان كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته . وهل صمت اذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان الوقا من السنين لا يولد مولود حتى يختن والى الآن لم يولد واحد منهم مخنونا الا لا عجز

مذهب آخر

ولما ظهر لجماعة من متأخري الماديين فساد ما تمسك به اسلافهم نبذوا آراءهم واخذوا طريقاً جديدة فقالوا ليس من الممكن ان تكون المادة العارية عن الشعور مصدراً لهذا النظام المتقن والهيئة البديعة والاشكال المعجبة والصور الانيقة وغير ذلك مما خفي سره وظهر اثره

افضل منه واجراً . فانه يعد مسألة التحول في الكائنات امراً معقولاً ومن اعتراضاته قوله « قول المتكلمون من مذهبنا الاسلام ان الفاعل يوجد الكائنات بلا واسطة وبذلك يكون كمن يعمل في وقت واحد عملاً واحداً جامعاً لعدة اعمال متناقضة متقابلة . وهذا المذهب يقتضي ان كل شيء في الكون مفتقر الى مداخلة الخالق مباشرة فالنار لا تحرق والماء لا يجري الا بخلق خاص وعلم جراً » قلنا وهو قول في منتهى السداد ولو اراد الافغاني ان يرد عليه لما وجد سبيلاً الى ذلك الا بمثل الاقوال المقتضية البهيمية التي يرد بها هنا لايهام السذج انه هدم جميع تلك المذاهب . ومع ذلك فالهدم سهل ولكن ماذا تضع موضع الشيء المهدم

ولكن العلة في نظام الكون علوية وسفلية والموجب لا خلاف الصور والمقدر لا شكها واطوارها وما يلزم لبقائها تتركب من ثلاثة اشياء « متغير » و « فورس » و « انتليجانس » اية مادة وقوة وادراك

وبالجملة فهذه عشرة مذاهب اختلف اليها منكرو الالهية (١) الزاعمون ان لا وجود للصانع الاقدس وهم المعروفون بين شيعةهم او عند الالهيين بالطبيين والماديين والدهريين وان شئت قلت نيشريين وناثوريين واليسميين وماتيرياليسميين

ولا يظن ظان أنا نقصد من مقالنا هذا تشنيعاً بهؤلاء « البياجوات » ؟ الهنديين « البياجواسم ايطالياني اشتهر في الهندلن بقلد الماهر في اللعب بحركات غير منسقة لاضحاك النظرين ويعبر عنه في العربية بالخلايس واصله الشيء لا نظام له والطبيعيون في الهند يثولون احوال الدهريين في اوروبا تمثيلاً مضحكاً « كلا ان هؤلاء لا نصيب لهم في العلم بل ولا من الانسانية ؟ فهم بعيدون من مواقع الخطاب ساقطون عن منزلة اللوم والاعتراض . نعم لو اريد انشاء تياترو ملهى او كلبتلى . . نوع من اللعب يشخصون فيه احوال ملوك الهند الاقدمين . لتمثل فيه احوال الامم المتمدنة مست الحاجة الى هؤلاء ؟ لاقامة هذه الالاعيب ؟ وانما غرضنا الاصلي اعلان الحق واظهار الواقع . والآن نعلم مشروع الشروع في بيان المفاصد التي جلبها الماديون ، النيشريون ، على نظام المدنية والمضار التي تضعف لها بناء الهيئة الاجتماعية وكان منشأؤها فشو افكارهم

✽ دفع قيمة الاشتراك ✽ دفع قيمة الاشتراك في المجلة يكون اما حوالة على البوسطة او شك على بنك او اوراق مالية في كتاب مسوكر ✽ رسوم المجلة ✽ تاخر نشر الرسوم الجميلة التي جلبناها للمجلة الى الجزء التالي

(١) كثيرون ممن يقولون ببعض المذاهب التي تقدمت لا ينكرون وجود الله بل يعتقدون بوجوده تعالى من ذلك كثيرون من انصار مذهب دروين وهم يقولون انه اذا صح هذا المذهب كان دليلاً على حكيمته تعالى في خلق الكون خلقاً بديعاً بالتدرج والتحول . ومن هؤلاء كثيرون من علماء وروساء الكنيسة الانجيلية والكاثوليكية